

الزواج حاجة نفسية

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدق

هذا رجل يحكم أمره على مقتضى العقل والحكمة ، وقد أمليا عليه ألا يتورط فيما تورط فيه غيره ، فيتخذ الزوجة ويعقب الولد ، محملا نفسه تبعات ما كان أغناه عنها ، مشتغلا بهوم كان فارغ البال منها . فهو ثابت العزم على العزوبة ، يزداد بها كل يوم يقينا . وفي كل حين يجادله المجادلون ولم يظفروا بإقناعه فينصرفون عنه يائسين ، ولعلمهم إذا خلوا إلى أنفهم كانوا به من المعجبين . ذلك مقتضى "العقل" .

وهذا شاب في عتفوانه صاحب لهو ومراح . انفسحت أمامه ميادين اللذة ومجالها ، وواتته الفرص ومحضته طبياتها . وهو إلى ذلك من القلائل المجدودين فلم يتلف في سبيلها صحة ، ولم يهلك مالا ، وإنما كانت حياته ليلة قصف ، كلها طرب وضحك وعبث . هذا الطروب السعيد هيات يخطر له الزواج ، وهيات يفاتحه فيه أحد . وفيه مثلته التقيد بالزوجة وحمل هم العيال ؟ إنه - إلى خلو البال - متجدد العرس . وذلك أبلغ متعة في "الحس" .
حالان مستعصيان ولا عجب .

على أننا لانكاد نتعود حالهما ونميل إلى التسامح في أمرهما وإقامة العذر لهما حتى نسمع ذلك العجب :

إن هذين اللذين عرفناهما من أرسخ العزاب ، لم يلينا - بعد طويل الأمد أو قصيره - أن اتبها كثيرهما إلى الزواج .

فما القول ؟

أو نحسبها لعنة قضاء فينا وعدوى سنخف !

إننا ندع في هذا المقام الهذر والمزاح لقرر أن الجانب الأسمى منا لم يزل يغالب "العقل" و"الحس" حتى ظب .

فالى جانب "العقل" الذى يأمر بالأناية، ولا يدل على غير المصلحة الشخصية، تقوم غريزة نفسية تدفع إلى العطف والتضامن والإيثار ومعاناة الجهد والمخاطرة بالدم من أجل الغير وفى سبيل صلاح المجتمع وبقاء النوع . ولولا هذه الغريزة لما خاض عناشيرات الوغى وحمد لمكارها الجند المدافعون ، ولا استعذب طعم الردى الشهداء المؤمنون ، ولا احتمل الأذى من أجلنا الهداة المصلحون ، ولا ارتقى علم ، ولا تقدم طب ، ولا تأسست منشآت البر والرحمة ، ولا تعاونت الجماعات على تحسين نظام العمل وتقسيم الثروة ، وما إلى ذلك من مقومات المجتمع وهو جبات كمال الحضارة ، ولما كذت الأذهان وتوجهت المساعى لتأمين المستقبل وكفالة الأجيال القادمة .

وهذه الغريزة الكامنة القوية التى تخرج الفرد من أنانيته ليخدم الجماعة فى جميع ما أوردنا هى بينها التى تدفع الفرد - شاء أو لم يشأ - إلى خدمة النوع والقيام على بقائه عن طريق تكوين الأسرة .

ولئن كان الزواج فى ذاته تنظيماً للعلاقات الجنسية فى المجتمع ، فإنه - فى رسومه وملايساته وآثاره - تهذيب لها وارتقاء بها ، فهو يخلع على العلاقات الجنسية قداسة الدين واحترام المجتمع ، كما يدخل عليها الود المتبادل وروح التضامن والمشاركة على صفا الحياة وكدرها .

فالزواج بهذين الاعتبارين انتصار على أنانية العقل وحيوانية الحس .

ولسنا نزع أن هذه الغلبة فيها القضاء على المغلوب . ولكنها على كل حال تخفف حدته ، وتحد من شرته . فاذا الحس يطف ويشف ، وإذا أنانية الفرد تتسع للأسرة .

يضاف إلى ذلك أن مطالب الأسرة حافز للرجل على مضاعفة العمل والإنتاج . والزواج يرد على الأعزب بأنه يعمل من غير ملل . فان ابتسامه لطيفة من طفله ترسم على الفم الصغير الأورد لتسببه ما لاقاه طول يومه من جهاد ومشقة . ولما كان لابد للحياة من غرض ، فلن تجد غرضاً أشبع وأدنى إلى طبائع الكافة من الأسرة . وليكن عمل هؤلاء لعياهم ، فإنهم من حيث لا يريدون إنما يخدمون بلادهم ، بما أبلوا من عمل ، وما أنجبوا من ولد . فعلى هذين يقوم حاضر الدول ومستقبلها . وهما الضمان لعلو كلمتها وبقاء صرح عظمتها إلى أبد الأبدين .

ولكن ، ألا نقول كلمة عن الحب ، ونحن بسبيل الكلام عن الزواج بوصفه حاجة

الحق أنه لا أمان للحب . فإنه أحيانا مثل حريق الفس يشعل ويتعالى لهبه ، فاذا بلغ الضرام مبلغه ، لم يلبث لحظة حتى ينهار صرحه ، وينخبو سعيره بسرعة يعز تصديقا . وعلى كل حال فإن الحب في غلوائه وحدته الموجاء ، وما لا يرج يفززه من عقارب الغيرة ويعصف به من نوازيها ، غير موجب للطمانينة الى قيام بنان الأسرة عليه . وإنما يقوم البيت وتثبت دعائمه على ما يربط رجلا وامرأة من اشتراك الشعور والتقاء الذوق وتوافق المزاج .

وليدكر من يشفقون من تبعات الأولاد مرحلة العمر الأخيرة ، وما لا بد يقعد بهم وقتئذ من عجز ، وما يرين عليهم من وحشة ، فالأولاد مهما قيل في عقوبتهم ، الذخيرة يوم لا ذخيرة . وإذا تجاوزنا الجانب المادى الى العاطفى ، فهم قرة عين لا بائهم وبهجة قلب .

وإن الأب الفانى على فراش التزع يجود بالروح ، انما يذكر أولاده ويحرص على التفاهم حوله وهو يلفظ آخر نسيمات الحياة ، لأنه — لا ريب — يتعزى عن فقد الحياة بوجودهم ، ويشعر أنه يجسده وروحه حى فيهم . فهم العزاء حين ينقطع كل عزاء .

هذا حكم الزواج ، وهو أمر واقع لا محالة . وعاجله خير من آجله . وهو — كما رأينا — حاجة نفسية لبني الانسان فى أوله وآخره .

عبد الرحمن صدقى

— هلكت أمة تعيش بفرد وتموت بفرد .

— من بنى بسلاح الحق ، بقى عليه بسلاح الباطل .

— بائى نفسه لا يبالى ما هدم .

— محاسن وجه الدار الجميلة ، ومحاسن وجه البلد الفنون الجميلة .

— من ساء خلقه اجتمع عليه نكد الدنيا .

— الطير لا تقرب أفقا فسد فضاؤه ، والحرية تهرب من بلد اختل قضاؤه .

— كاد صفح الوالد يسبق ذنب الولد .

شوقى